

الصبيان الذين تسابقوا نحو ثنية الوداع

انطلقوا كالعصافير.. نحو مدخل المدينة من جهة تبوك والتي يقال لها (ثنيات الوداع).. يتلقون النبي ﷺ.. هاهو أحدهم يقول: «خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك إلى ثنية الوداع»^(١) و«خرج الناس يتلقونه، فخرج النساء والصبيان، فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان، حتى لقينا رسول الله ﷺ بثنية الوداع»^(٢).

أحد هؤلاء الأطفال ابن الشهيد جعفر الطائر قائد مؤتة يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»^(٣) وبعد أن حيا الأطفال والنساء.. توجه نحو المسجد لـ «أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر ضحى، دخل المسجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»^(٤) ثم جلس للناس، وأثناء جلوسه عليه السلام تهادى نحوه رجل يحاول جمع حطام قلبه.. رجل يظله الخجل ويقله.. ذو قصة مؤثرة جداً، وحزينة جداً سنعرفها بعد قليل، بعد أن نصاحبه عليه السلام إلى بيت فاطمة عليها السلام، حيث «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر فأخر ما يكون عهده به من أهل بيته فاطمة رضي الله عنها وإذا قدم فأول ما يدخل عليه فاطمة رضي الله عنها»^(٥) ثم توجه إلى أحد أبياته، وبعد أن دخل في ذلك البيت بزمن سمع:

(١) صحيح البخاري ١١٢١-٣ وابن حبان ١١٣-١١ والطبراني في الكبير ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم

واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

(٢) صحيح، وهو الحديث السابق تماماً.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٨٥.

(٤) صحيح البخاري ٢-١١٢٣.

(٥) حديث حسن رواه في الأحاد والمثاني ٥-٣٥٩ وغيره من طريق سليمان المنبهي عن ثوبان وسليمان تابعي مجهول لكن للحديث شاهد عنده أيضاً لكنه ضعيف لضعف إبراهيم بن قعيس عن نافع عن ابن عمر، وله شاهد في المستدرک ١-٦٦٤ من طريق أبي فروة الرهاوي عن عروة بن رويم اللخمي سمعت أبا ثعلبة الخشني. وأبو فروة ضعيف وشاهد رابع بسند جيد لولا أخطاء أحد الرواة الأسود بن حفص حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبّل ابنته فاطمة.

صوت الدف في بيت النبي ﷺ

بل وتحت سمعه وبصره ورضاه، وفي يوم ليس من أيام العيد، وذلك عندما «جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن رذك الله سالماً، أن أضرب على رأسك بالدف.

فقال رسول الله ﷺ: إن نذرت فافعلي، وإلا فلا.

قالت: إني كنت نذرت.

فقعد رسول الله ﷺ وضربت بالدف وقالت:

أشـرق البـدر علـينا من ثـنـيـات الـوداع

وجـب الشـكر علـينا ما دعـا لله داع^(١)

كان ﷺ يقر هذه الجارية على نذرها، ولو كان نذر معصية لما وافقها عليه لأن النبي ﷺ يقول: «لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد»^(٢) «لا نذر في معصية الله»^(٣) وقد حدث من الجارية ما يؤكد ذلك في اليوم نفسه فقد: «قالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف. قال: أوفي بنذرك.

قالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية.

قال: لصنم؟ قالت: لا. قال: لوثن؟ قالت: لا. قال: أوفي بنذرك»^(٤) وصدر منها بعد ذلك

تصرف مضحك، لكنه في الوقت نفسه شهادة لأحد عظماء الصحابة من النبي ﷺ.

(١) سننده صحيح رواه ابن حبان (موارد ١-٤٩٣) أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو ثميلة يحيى بن واضح حدثني الحسين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه. شيخه هو الإمام ابن خزيمة وزياد ثقة حافظ: التقريب ٢١٨ وأبو ثميلة ثقة ٥٩٨ وشيخه وشيخ شيخه ثقتان. ولم أجد الأبيات في ابن حبان ١٠-٢٣١ مما يعني أنها مدرجة، أو أن الهيثمي وجدها في بعض نسخ ابن حبان لذلك وضعها في الهامش وقد وضعت هذا الحديث هنا لمقدمه ﷺ من ثنيات الوداع وهي الغزوة الأنسب لهذا الحدث.

(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٣) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٤) سننده حسن رواه أبو داود ٢-٢٣٧ حدثنا مسدد ثنا الحرث بن عبيد أبو قدامة عن عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند حسن معروف وعبيد الله ثقة وليس كما قال الحافظ رحمه الله أنه صدوق يخطئ - انظر تعليقي على التقريب ١-٥٢٠ تلميذه الحارث حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم: التقريب ١-١٤٢.

حدث ذلك بعدما قال عليه السلام لها: «إن كنت نذرت فاضربي . فجعلت تضرب ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه وهي تضرب ، ثم دخل عمر رضي الله عنه ، فألقت الدف تحتها ، وقعدت عليه ، فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يخاف منك يا عمر»^(١)

ويبدو أن شدة عمر رضي الله عنه قد تصاعدت بعد أقوال المنافقين وأعمالهم الخطيرة ، ولسوف تكشف الأيام لنا عن مواقف هذا الرجل العظيم تجاههم ، أما النبي ﷺ فقد كان سنة من السماحة واللين والرفق .. هاهو يرى :

صورة مجسمة في بيت عائشة

تقول عليها السلام: «قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وقد نصبت على باب حجرتي عباءة، وعلى عرض بيتي ستر أرمني، فدخل البيت، فلما رآه قال: ما لي يا عائشة والدنيا .

فهتك الستر حتى وقع بالأرض، وفي سهوتها^(٢) ستر، فهبت ريح فكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة (لعب) فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي .

ورأى بين طوبها فرساً له جناحان من رقع قال: فما هذا الذي أرى في وسطهن؟ قالت: فرس .

قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان .

قال: فرس له جناحان؟ قالت: أوما سمعت أن لسليمان بن داود خيلاً له أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه»^(٣) من قول عائشة التي تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع ورفقته

(١) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٧٧ وغيره من الحسين بن واقد ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وهو سند صحيح مر تخريجه في الحديث قبل السابق .

(٢) رف داخل الجدار .

(٣) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٢١٩ واللفظ له والنسائي في الكبرى ٥-٣٠٦ وأبو داود ٤-٢٨٣ عن يحيى بن أيوب حدثني عمارة بن غزوة أن محمد ابن إبراهيم التيمي حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة يحيى الغافقي من رجال الشيخين وشيخه لا بأس به من رجال مسلم والبقية ثقات وقد جاء في أبي داود الشك بين خبير وتبوك .

ورفقه.. كانت عائشة تتلقى منه الذوق الراقي، والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه. ذات مرة كان في بيتها، فدخل عليه بعض اليهود فألقوا عليه تحية كالسم. تقول رضي الله عنها «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم. ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله.

فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟

قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم»^(١)

إذا كان هذا هو رفقته ﷺ بأعدائه، فكيف سيكون موقفه من رجال ثلاثة لا يدرون ما يقولون، بل ولا ما يفعلون وهم يرونه قد رجع ﷺ من تبوك. لنعد بالأحداث إلى حيث المسجد النبوي.. لحظة وصول النبي ﷺ وجلسه فيه.. هناك بدأت المعاناة لـ:

الصحابة الثلاثة الذين غابوا عن تبوك

والذين ضاقت بهم الدنيا، واسودت بوجوههم حتى ضاقوا بأنفسهم.. ها هو: أحدهم الشاعر المؤمن كعب بن مالك، الذي باع النبي ﷺ بيعة العقبة، والذي انشغل وتردد حتى فاتته الغزوة، وهو في المدينة الآن.. يصف شعوره طوال تلك الأيام التي أمضاها بين جدران يشعر بأنها تحاول خنقه، وهواء يشعر بأنه لا يطيق الدخول إلى رثيته، وأرض تضيق به، وأعدار واهية لا قيمة لها..

كعب بن مالك يروي قصته الطويلة الدامية، في تلك الأيام السوداء فيقول: «غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة، حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أفض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أفض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم.

(١) صحيح البخاري ٥-٢٢٤٢.

فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك.

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقة^(١).

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب، ثم قال: تعال.

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى، إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث

(١) قررت أن أصدق في أقوالي.

صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمتم، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم، رجلان.. قالوا مثل ما قلت. فقليل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدمراً، فيهما أسوة.

فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتبتنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ببيكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وأتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟

ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام.

فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت.

فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت

عيناه.

وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمنت بها التور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت: أطلقها، أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك.

فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟

قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبيكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه؟

فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً^(١) وساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فیتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، الله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما لقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإنني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

(١) جاء على فرسه مبشراً.

الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِعُرْضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٦﴾﴾^(١).

هذه هي قصة كعب رضي الله عنه، ومعاناته التي لا تحتمل لأكثر من شهرين، لكنها تصفية المؤمنين وتربيتهم وامتحانهم، ولو كانوا من المنافقين لثم تجاهلهم.. كأن لم يكونوا ولم يكن تخلفهم. ولو مر مشرك بتلك الظروف التي مرت بكعب ورفاقه، لكان الانتحار أو الفرار أفضل خيار في نظره. لكنه الإيمان الذي يؤهل المسلم للتفوق على كل ما يمر به من أزمات.. الإيمان الذي يقول النبي ﷺ عن صاحبه، وعن قدرته على تجاوز الأزمات مهما بلغت شدتها، وعن الفرق بينه وبين المنافق: «مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز»^(٢) «الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثّل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»^(٣)

وإذا كانت أحزان كعب وهمومه قد انزاحت، فماذا عن أحزان زيد بن أرقم، وهل سيحمله صدقه إلى عالم الهجران كما حمل كعب؟ سنتوجه إليه الآن، فهو في بيته لا يخرج منه خجلاً من صدقه، الذي حولته أيمان المنافقين ووقاحتهم إلى كذب..

هاهو غارق في همومه.. يحكي قصته فيقول: «أرسل رسول الله ﷺ إلى (عبد الله بن أبي) وأصحابه. فحلفوا: ما قالوا.

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣ وقد أكملت الآية بين المعقوفين وليست في البخاري.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

(٣) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

فكذبني رسول الله ﷺ وصدقته، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت. فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: إذا جاءك المنافقون: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَمَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَأَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهْمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا لَوًّا وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلَهِكُمْ ءَأْمُولَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

فبعث إلي النبي ﷺ فقراً، فقال: إن الله قد صدقك يا زيد^(١) ولم يعد لكذب النفاق من أرض تقله أو سماء تظله.. طاشت ضربة عبد الله بن أبي بن سلول الحقيرة والأخيرة.. لكن هذه المرة ليست في الهواء، بل في صدره، وبدأ حقه الأسود يفتك به كالسرطان، فقد عرته الآيات الأخيرات التي نزلت.. تصدق زيد بن أرقم، وتكذب أيمان (ابن أبي) وأيمان من معه من المنافقين.. فضحته تلك الآيات، ولم تبق له عيباً مستوراً بعد اليوم.. تحول إلى خرائب من الإحباط، ومما زاد في إحباطه مشاهد الجموع الهائلة والوفود العظيمة، التي بدأت تتدافع نحو المدينة لتعلن دخولها في

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩ وقد أكملت الآيات وهي ليست ضمن النص.

الإسلام، ومبايعتها للنبي ﷺ.. كان كل زعيم قادم إلى المدينة خنجرا في صدر (ابن سلول).. كان يختنق كلما ابتسم المؤمنون، ويموت كلما تصافحوا وتعانقوا، وكان أشد ما يراه منظر قادة كان بالأمس يتمنى منادمتهم، فغدوا تابعين لهذا النبي الذي يتمنى لو خنقه بيديه، وكان من بين الواصلين إلى المدينة القائد المظفر:

خالد بن الوليد يعود مصحوباً بأكيدر

«خرجت خيل لرسول الله ﷺ، وسمع بها أكيدر دومة الجندل^(١) فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أن خيلك انطلقت، وإني خفت على أرضي ومالي، فاكتب لي كتاباً لا تعرض له ولا لشيء هو لي، فإني مقر بالحق الذي هو عليّ. فكتب له رسول الله ﷺ كتاباً، وأخرج (أكيدر) قباء منسوجاً بالذهب مما كان كسرى يكسوهم، فقال: يا رسول الله اقبل عني هذا»^(٢).

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه. فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فالذي نفسي بيده لمناديل سعد ابن معاذ في الجنة أحسن من هذا»^(٣).. تحدث أنس رضي الله عنه عن سعد ابن معاذ فأنهمرت دموعه لذكراه وقال: «إن سعداً كان أعظم الناس وأطولوه، ثم بكى فأكثر البكاء، ثم قال: إن رسول الله ﷺ بعث إلى (أكيدر) صاحب دومة بقباء، فأرسل إليه جبة ديباج منسوجة فيها الذهب، فلبسها رسول الله ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم، ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم.

(١) أكيدر ملك دومة الجندل.

(٢) سنده قوي رواه في معجم الصحابة ٢-٢٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله بن إيباد عن أبيه عن قيس بن النعمان. محمد ثقة تاريخ بغداد ٢- ٩٠، وشيخه ثقة: التقريب ١٤٠ وعبيد الله صدوق من رجال مسلم ووالده ثقة انظر التقريب ٣٦٩ و١١٦ لكن هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك. فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة. فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية ٥-٢٠٨ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس. وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وإمام في المغازي مر معنا كثيراً.

فقال: أتعجبون من هذه! لمناديل سعد في الجنة أحسن مما ترون»^(١) «ثم أوشك أن نزعها، فأرسل به إلى عمر فقيل له: قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله؟ قال: نهاني عنه جبريل عليه السلام. فجاء عمر بيكي، فقال: يا رسول الله كرهت أمراً وأعطيتيه؟ قال: إني لم أعطكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه. فباعه عمر بألفي درهم»^(٢)

ثم إن أكيدر بعث هدية ثانية فيما بعد، فاستدعى النبي ﷺ علياً ثم أمره بأمرٍ يحدثنا عنه علي رضي الله عنه فيقول: «إن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير، فأعطاه علياً، فقال: شققه خمراً بين الفواطم»^(٣) والفواطم: فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بن أسد (أم علي) وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً.. فرحت الفواطم بالحرير الفاخر.. كيف لا وهي هدية محمد عليه السلام، لكن مهلاً.. لماذا قال المصطفى: شققه بين الفواطم؟..

أين زينب.. أين أم كلثوم عليهما السلام؟

لماذا لم يذكرهما النبي ﷺ؟ لماذا لم ينلها شيء من هذا الحرير الثمين والجميل؟ سألتنا وسألنا، وتوجهنا نحو بابيهما وانتظرنا.. انتظرنا طويلاً، فلم تجب زينب، ولم تعد أم كلثوم، وأمامة الصغيرة تبحث عن أمها زينب مثلنا فلا تجدها ولا تجد خالتها في طرقات المدينة، ولا عند الجيران.. لقد رحلت زينب، ومعها أم كلثوم إلى الرفيق الأعلى، ولم يبق من بنات النبي ﷺ إلا فاطمة.

لم نجد من يحدثنا عنهما سوى إحدى نساء الأنصار العظيمات وتدعى (أم عطية).. أم عطية المجاهدة والمرضة التي تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»^(٤)

(١) سننه قوي وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥-٤٧٢: حدثنا يوسف بن

سعید المصيصي حدثنا حجاج بن محمد عن بن جريج أخبرني أبو الزبير سمع جابر . يوسف ثقة حافظ:

التقريب ٢-٢٨١ وشيخه ثقة ثبت: التقريب ١٥٢

(٢) سننه قوي وقد مر معنا وهو الحديث السابق.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٥.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٤٧.

حدثتنا أم عطية عن زينب.. فقط عن غسلها، لأنها شاركت فيه، فتقول: «لما ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ قال لنا رسول الله ﷺ: اغسلنها وتراً»^(١) «اغسلنها ثلاثاً، أو خمساً، أو أكثر من ذلك إن رأيتهن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور، فإذا فرغتن فأذني»^(٢) وقال لهن: «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»^(٣) فنفذت أم عطية ومن معها ما قاله ﷺ حيث تقول: «فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث، قرنيها وناصيتها»^(٤) «ومشطانها ثلاثة قرون»^(٥) «فلما فرغنا آذناه. فألقى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه»^(٦) أي أعطاهن إزاره الذي يشد على الخصر، وأمرهن أن يجعلوه يلاصق جسدها الطاهر مباشرة، ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمانة، ثم واروها في مثواها الأخير عليها السلام، وبعد فترة أو قبل ذلك فجع النبي ﷺ مرة ثالثة.. فجع بفقد ابنته الصغرى الطاهرة أم كلثوم عليها السلام.

سألنا أنساً رضي الله عنه عن قصة موت أم كلثوم؟ فأوحت روايته أنها ماتت دون مرض، فقد كانت تقضي مع زوجها يوماً ودوداً ثم ماتت. يقول أنس رضي الله عنه: «شهدنا بنت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان. فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا.

قال: فانزل في قبرها. فنزل في قبرها فقبرها»^(٧) «فلم يدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه القبر»^(٨)..

في أقل من عشر سنوات كان الأحبة والأصحاب يرحلون أمام عينيه.. يخفقون من بين يديه، وهو صابر محتسب.. تدمع عينه، ويحزن قلبه، ولا يقول إلا ما يرضي الرب سبحانه، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى.

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.

(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.

(٣) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.

(٤) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٤٧.

(٦) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.

(٧) صحيح البخاري ١-٤٥٠.

(٨) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٢٩ وغيره من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وهو سند صحيح متصل على شرط الشيخين.

أما أمامة بنت زينب فكانت تنافس الحسن والحسين في التسلسل داخل مشاعره عليه السلام، وداخل المسجد، أما خارج المسجد فكانت أمامة دلالاً يتبختر عبر رياض جدها ﷺ.

تقول عائشة رضي الله عنها: «قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشي أهداها له، فيها خاتم من ذهب، فيه فص حبشي.

فأخذه رسول الله ﷺ يعود معرضاً عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب، فقال: تحلي بهذا يا بنية»^(١) فتحلت به كما تحلت بعطف جدها ورعايته.. جدها الذي لم تصف له الحياة من الكدر والهموم والتعب، ومع ذلك يتجدد نشاطه كل يوم في نشر رسالة ربه والتبشير بها.

فكما كانت تلك الأيام مليئة بالفراق المرير، فهي كذلك تفيض بمشاهد العناق والمصافحة، واللقاءات التي تسر كل مسلم مخلص. فقد سالت الوفود في هذا العام من كل الجهات.. تباع النبي ﷺ، وتدخل في دولة الإسلام طائفة مختارة.. لقد رحلت أم كلثوم ورحلت زينب.. رحلتا من (طيبة) في قافلة لا تمهل أحداً، ولا تمنحه وقتاً كي ينهي أعماله، أو يودع الجميع.. قافلة لا يعرف جدول رحلاتها التأجيل أبداً، ولم تتأخر مواعيد وصولها أو مغادرتها يوماً من الأيام. لا أدري من غادرت قبل الأخرى. لكنهن رحلن، فلم يبق للنبي ﷺ من بناته سوى فاطمة الزهراء التي تحتل قلبه، والتي تصفها عائشة الوفية لخديجة وبناتها.. عائشة التي حفظت أخبارهن تصف مشاعر فاطمة ومشاعر أبيها بالكثير والجميل عندما تقول: «ما رأيت أحداً من الناس أشبه كلاماً برسول الله ﷺ، ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة، كان رسول الله ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء يجلسها في مكانه، وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته»^(٢)

تعاضم هذا الحب لدرجة «أن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»^(٣)، أما فاطمة عليها السلام فتريد أكثر من ذلك..

(١) صحيح البخاري ٤٣١-١.

(٢) سنده قوي رواه إسحاق بن راهويه ٨-١ وغيره من طريق إسرائيل أنا ميسرة بن حبيب النهدي أخبرني المنهل بن عمرو قال حدثني عائشة ابنة طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت.. وعائشة بنت طلحة تابعة ثقة مشهورة وتلميذها المنهال بن عمرو صدوق من رجال البخاري: التقريب ٢-٢٧٨ وتلميذه ميسرة صدوق من رجال التقريب ٢-٢٩١.

(٣) صحيح البخاري ١٣٦١-٢.

فاطمة تريد أن تثبت ذلك لزوجها

فقد تقدم علي رضي الله عنه لخطبة صحابية هي ابنة أبي جهل، فوصل الخبر إلى فاطمة، فانطلقت إلى أبيها، فحدث ما يرويه أحد الصحابة: «إن علياً خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك؟ وهذا علي ناكح بنت أبي جهل.

فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوؤها، [أتخوف أن تفتن في دينها] [وأني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً ولكن] والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ، وبنت عدو الله عند رجل واحد.

فترك علي الخطبة»^(١)

لم يبق لدى النبي ﷺ سواها، وهي على وشك الرحيل أيضاً، أما كلمة بنت عدو الله فليس فيها شتم لتلك الصحابية الجليلة بقدر ما هو توظيف للفظ من أجل إيصال هذه الفكرة بصوت أقوى. أما الحادثة كلها فتعني المزيد من الرحمة والمراعاة لمشاعر المرأة، وهي أن من حقها أن تطلب الطلاق أو الخلع.. إن كانت لا تحتمل زواج زوجها بأخرى، لكن عليها في الوقت نفسه أن تتحمل مسؤولية قرارها، وأن لا تلوم إلا نفسها إن جاءت النتائج عكسية، فالحرية التي منحها الإسلام لها تعني أول ما تعني تحملها لمسئولية تلك الحرية الثقيلة.

هذا بعض ما كان يحدث في بيت النبوة، أما خارج ذلك البيت الكريم فقد قرر النبي ﷺ وضع نهاية لمشكلة النفاق التي أزفت على الزوال، وبدأت بالتلاشي بموت أصحابها، وتضاءل نشاطها بعد أن انسابت الجزيرة للنبي ﷺ ودولته، وسالت الوفود من كل فج تتضو عنها عباءة الشرك والظلام، وتدخل في دين الله أفواجا.. أفواجا..

ملفات النفاق وأهله

كلها اليوم مسجلة في ذاكرة أحد الصحابة، فقد استدعى النبي ﷺ حذيفة بن اليمان، وسلم لذاكرته قائمة بأسماء المنافقين حتى تحذر منهم الأمة.

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٦٤ والزيادة لمسلم ٤-١٩٠٣.

وقال له: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط»^(١) أي حتى يدخل الجمل في فتحة الإبرة، وهم أولئك الذين حاولوا اغتيال النبي ﷺ عندما «خرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟

قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون. فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله

قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها. قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمد قد وضع يده في أصحابه. فسامهم لهما وقال: اكنماهم»^(٢) فامتثل حذيفة وعمار رضي الله عنهما، وكنما السر ولم يخبرا أحداً بهوية أي منافق إلا بعد موته، حتى لا يصل علىه.

وكان مما جعل مشكلة النفاق تتلاشى ويتلاشى أثرها.. ما يحدث في هذا العام المبهج:

عام الوفد

ففي هذا العام توافد زعماء القبائل نحو النبي ﷺ، حتى تحولت المدينة إلى عاصمة مزداة ومزدحمة بالمبايعة، والالتزام السياسي والديني بالإسلام.. كان كل يوم يمر يدي الجاهلية من نهاياتها، حيث يعود كل وفد إلى دياره محطماً داخل أعماقه كل رموز الجاهلية، وعندما تطأ أقدامه دياره.. تبدأ الأيدي التي تعلمت الطهارة في المدينة بتحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله الواحد الأحد، ولعل من أول الوافدين

وفد الطائف (ثقيف)

الذين انحدروا من جبال العناد والطائف نحو المدينة مبايعين، وكان بصحبتهم رجل شريد أعياه التعب والخوف من النبي ﷺ، وضاق به الطائف، بل ضاقت به الأرض..

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

(٢) حديث حسن مر معنا عند الحديث عن العودة من تبوك.

ضاقت الدنيا بوحشي بن حرب قاتل حمزة، لكن رجلاً حكيماً نصحه بالانحدار معهم والتوجه نحو أبواب الحرية الحقيقية التي أشرعها النبي ﷺ.

يقول وحشي أنه بعد غزوة أحد: «لما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب. فقلت ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إنني لفي ذلك من همي، إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة»^(١) مع وفد ثقيف، الذين فرضوا على النبي عليه السلام شروطاً غريبة تمنحهم -كما يظنون- تمييزاً بين القبائل، لكن أفق النبي ﷺ كان كالمدى، ونظرته كانت أبعد بكثير، فما هي قصة وفد ثقيف المملوءة بالكثير والجميل.

اقتربنا من المدينة، فإذا رواحل ثقيف تقف خارجها، حيث يقوم بحراستها شاب يقال له (عثمان بن العاص)

سألناه: ما شأنك يا عثمان، ولم لم تذهب مع أصحابك لمبايعة النبي ﷺ؟ فهم هناك منذ أيام وأنت هنا.. أولم تسلم بعد..؟

أجابنا عثمان عن كل تساؤلاتنا فقال: «قدمت في وفد ثقيف حين وفدوا على رسول الله ﷺ، فلبسنا حللنا بباب النبي ﷺ، فقالوا: من يمسك لنا رواحلنا؟ وكل القوم أحب الدخول على النبي ﷺ وكره التخلف عنه؟

قال عثمان: وكنت أصغر القوم، فقلت: إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد الله لتمسكن لي إذا خرجتم؟

قالوا: فذلك لك. فدخلوا عليه»^(٢)

(١) جزء من الحديث الصحيح الذي مر معنا حول شهادة حمزة وهذا لفظ ابن إسحاق.
(٢) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٩-٥٠ حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ثنا سعيد بن أبي مریم ثنا محمد بن جعفر عن سهيل بن أبي صالح عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن عثمان بن أبي العاص. حكيم وتلميذه صدوقان. التقريب ١٧٦ و٢٥٩ وابن جعفر ثقة وتلميذه ثقة ثبت فقيه وشيخ الطبراني صدوق التقريب ٤٧١ و٢٣٤ و٥٥٨.

تركنا عثمان لفترة ولحقنا بالوفد الذي كان بينهم الآن رجل مصاب بمرض معد .
فأحب النبي ﷺ أن يقدم لأمته وللدنيا درساً في الوقاية من الأمراض المعدية .
يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: «كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه
النبي ﷺ إنا قد بايعناك فارجع»^(١) فرجع .

حدث ذلك في الوقت الذي يقول فيه عليه السلام: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة
ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»^(٢) ففي هذا التطبيق العملي إسقاط
لخرافة العقيدة الجاهلية .. حول العدوى والتشاؤم والبومة وشهر صفر، وأن هذه
الأشياء موجودة حقيقة، لكنها لا تقدم ولا تؤخر، ولا تضر ولا تنفع ولا تؤثر بنفسها،
وأن الأمر بيد الله وحده .. أما عن انتقال المرض فقد خلق الله له أسباباً وطرقاً .. حث
النبي ﷺ على قطعها والسلامة منها، فالجذام قد ينتقل عن طريق اللمس أو استخدام
أدوات المريض، ولذلك أمر ﷺ بالفرار من المجذوم، وأما الطاعون وهو مرض معدي
وفتاك، فقد شدد ﷺ في أمره، حتى أوجب أن يكون هناك حجر صحي على المريض
والمرض معاً، حتى في حالة عدم وجود دولة أو نظام أو أطباء فقال: «إن هذا الطاعون
رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها
فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»^(٣)

إذاً فقد رجع التقفي المريض من حيث أتى، أما بقية وفد ثقيف فبايعوا واشتروا
شروطهم، ولما سألنا «جابرأ عن شأن ثقيف إذ بايعت؟

قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ
بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»^(٤)

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٥٢ .

(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٥٨ .

(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨ .

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٣-١٦٣ حدثنا الحسن بن الصباح ثنا إسماعيل يعني ابن عبد الكريم حدثني
إبراهيم يعني ابن عقيل بن منبه عن أبيه عن وهب قال سألت .. وله طريق آخر عند أحمد ٣-٢٤١ وفي
الأحاديث والمثاني ٢-١٨٨ من طريق ابن لهيعة وموسى بن عقبة عن أبي الزبير سألت جابر وهما طريقان
الأول قوي والثاني صحيح .

تلك هي نظرة النبي الحكيم الذي يبحث عن القلوب لا عن الجيوب.. كان ﷺ يدرك أن هؤلاء القوم الباحثين عن تميز إيجابي لن يرضوا بالنقيصة مستقبلاً، فهم وإن امتنعوا عن الجهاد ودفع الزكاة، فسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه أن امتيازهم هذا تحول إلى نقص في الحقيقة وعيب لن يرضوه لأنفسهم.. عندما يرون الأمة كلها تدفع زكاة ربها، وتهب كلها للجهاد في سبيله.

ولم يكن النبي يستخدم هذا الأسلوب مع الجماعة فقط، بل مع الأفراد أيضاً، فقد قدم إلى المدينة رجل يريد الإسلام، ولكن بشرط أغرب من شرط ثقيف: «أتى النبي ﷺ على أن يصلي صلاتين. فقبل منه»^(١) لأن المشكلة هنا هي الشرك ووحشته، فإذا خرج من ضيق الشرك إلى فضاءات الإسلام الرحبة، فإنه سوف يرف مع غيره في تلك الأجواء الجميلة والرائعة، ولن يرضى لنفسه البقاء في المؤخرة، لا سيما وأن من يشترطون تلك الشروط.. يرون لأنفسهم ما لا يرون لغيرهم قبل دخول الإسلام، فإذا دخلوه أدركوا أن غيرهم قد تجاوزهم بمسافات من الوعي والإنجاز.

لنعد إلى ثقيف التي دخلت الإسلام، فضرب لهم النبي ﷺ قبة، وأقام معهم فيها ترفيقاً لقلوبهم، ولنحهم مزيداً من الجرعات الإيمانية والعلمية، حتى بدأوا يسألون عن فروع الإسلام، فتحت تلك القبة تلقت ثقيف دروساً واشترطت شروطاً.

يقول الأنصاري الكريم «جابر بن عبد الله: إن وفد ثقيف سألوا النبي ﷺ فقالوا: إن أرضنا أرض باردة فكيف بالغسل؟ فقال: أمّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثاً»^(٢)

ويقول أحدهم واسمه أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه: «أتيت رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فكنّا في قبة، فقام من كان فيها غيري وغير رسول الله ﷺ، فجاء رجل فساره فقال: اذهب فاقتله. ثم قال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكنه يقولها تعوداً».

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٣٦٢ ثنا وكيع ثنا شعبة عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أتى.. ووكيعة وشعبة وقتادة أئمة معروفون ونصر تابعي ثقة من رجال مسلم وقتادة عن نصر على شرط مسلم.. انظر صحيح مسلم ١-٢٩٢.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٥٩.

فقال: رده. ثم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»^(١)

درس في الوقاية من الأمراض، ودرس في النظافة، وثالث في وقاية النفس وحفظ الدماء يقدمها النبي ﷺ للمتهورين، الذين سمحوا لأنفسهم بالقفز فوق أسوار المظاهر لافتحام النوايا والبواطن. وخلال تلك الدروس تسلل من تلك الخيمة رجل تلعف بالخجل والعار، والخوف والرجاء أيضاً.. تسلل وحشي فجأة رامياً بحربة الشرك وحرته ودماء حمزة، وكل ذنوبه بين يدي الله ورسوله.. راضياً بحكم الله في مصيره.

وحشي يكمل فصول قصته فيقول أنه: «لما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب، فقلت: ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه.. أتشهد بشهادة الحق.

فلما رأني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله.

قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة. قال: فحدثته كما حدثتكم. فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك. قال: فكنت أتكذب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله ﷻ»^(٢) مع بقائه رضي الله عنه في المدينة وسكناه فيها، ومشاركته للنبي ﷺ في غزواته، وحضوره لمجالسه وروايته لحديثه. لكن حجم حمزة رضي الله عنه وطريقة قتله في ميزان محمد الإنسان، لا النبي.. جعلته لا يطبق النظر إلى وجه قاتل حمزة.. ذلك الوجه الذي سيجدد أحزانه وينشط أوجاعه.

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٨ والدارمي ٢-٢٨٧ والطبراني ١-٢١٧ والنسائي في الكبرى ٢-٢٨٢ من طرق عن شعبة عن النعمان قال سمعت أوساً.. وشعبة بن الحجاج إمام لقب بأمر المؤمنين في الحديث وشيخه تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٠٤.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - السيرة النبوية ٤ - ١٧. حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن سليمان بن يسار عن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار... وقد مر معنا تخريجه، فشيخ ابن إسحاق وشيخه ثقتان.

وبعد إسلام ثقيف ووحشي..

بعد تلك الدروس وغيرها وبعد أيام ودعوا نبيهم ﷺ متجهين ومبتهجين نحو الطائف، وكان قلبه عليه السلام مبتهج بإسلام هؤلاء القوم.. هؤلاء الذين أبكوه يوماً وأدموا قدميه.. كان سعيداً بهم.. كيف لا، وهو يرى دعوته المبررة قد استجيبت.. وهو يرى رحمته بهم وحنوه عليهم تجعلان من قلوب أهل الطائف بساتين للإسلام.. يالها من ذكريات قصها على عائشة عن هؤلاء القوم، عندما قال لها: «عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(١)

ها هم يعبدون الله لا شريك له، ويباعون، وينصرفون مصحوبين بالسلامة، ولما وصلوا إلى حيث رواحلهم التي يحرسها الشاب عثمان بن أبي العاص.. طلبوا منه التحرك نحو الطائف وعدم الدخول إلى المدينة.

لكن ذلك الشاب كان عالماً من الشوق لنبيه.. كان يحمل في قلبه أشياء لا يستطيع أحد أن يحملها أو يترجمها عنه.

يقول رضي الله عنه: إن قومه ثقيف «خرجوا فقالوا: انطلق بنا قلت: أين؟ فقالوا: إلى أهلك.

فقلت: ضربت من أهلي حتى إذا حلت بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه؟ وقد أعطيتموني من العهد ما قد علمتم! قالوا: فاعجل فإننا قد كفيناك المسألة، لم ندع شيئاً إلا سألناه عنه.

فدخلت، فقلت: يا رسول الله، ادع الله يفقهنني في الدين ويعلمني. قال: ماذا قلت؟

(١) صحيح ٢-١١٨٠.

فأعدت عليه القول. فقال: لقد سألتني شيئاً ما سألتني عنه أحد من أصحابك. اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك، وأُمَّ الناس بأضعفهم»^(١) أي إذا صليت بقومك، فاجعل طول صلاتك مناسباً لأضعفهم.

ثم أوصاه النبي ﷺ بوصية هامة:

النهى عن اتخاذ مؤذن يطلب أجراً على أذانه

قال ﷺ لعثمان «أنت إمامهم، فاقتد بأضعفهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»^(٢) فالتطويل على الناس في الصلاة ليس دليل علم، بل دليل جهل وقلة فقه.. إذا كان فيهم الضعيف والمريض، واتخاذ الأجر على الأذان ينقل الأذان من قائمة العبادات، إلى قائمة الحرف والمهن والوظائف الدنيوية، وقد يفقد صاحب هذه النية ذلك الحلم الرائع، الذي بشر به النبي ﷺ المؤذنين عندما يكون «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(٣)

وهذا ما يبحث عنه عثمان، الذي يواصل حديثه الممتع فيقول: «فخرجت حتى قدمت عليه مرة، أخرى فقلت: يا رسول الله اشتكيت بعدك»^(٤) حيث «شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم؟ فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدي وقل: باسم الله ثلاثاً. وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(٥)

وشكا له أمراً آخر يجده في صلاته «فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها علي؟

(١) حديث صحيح مر معنا أوله عند قدوم وفد ثقيف.

(٢) سنده صحيح أحمد ٤-٢١ وغيره من طريق سعيد الجريري عن أبي العلاء عن مطرف عن عثمان بن أبي العاص.. فسعيد بن إياس ثقة التقريب ٣٣٢ وأبو العلاء كان ثقة فاضلاً كبير القدر سير أعلام ٤-٤٩٤ ومطرف بن عبد الله تابعي كبير ثقة التقريب ٥٣٤.

(٣) صحيح مسلم ١-٢٩٠.

(٤) هو آخر حديث عثمان السابق.

(٥) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

فقال: رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه،
واتفل على يسارك ثلاثاً.

قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»^(١)

ومثل هذا الشيطان الذي عرض لعثمان في صلاته شياطين آخرون.. يعرضون لكل مسلم يصلي، وبطريقة غاية في الخبث، فهم يشغلون المصلي بالطريقة التي يحبها المصلي نفسه، فهو يأتي التاجر أثناء صلاته بقائمة من المشاريع الاقتصادية الناجحة، ويذكره بما له وما عليه، ويثير خوفه على ماله. ويقدم لمن تستهويه النساء ألبوماً بالصور والأساليب الجديدة للقصص، أما العلماء فهو يحاورهم في بحوثهم ومراجعهم، وآخر ما توصلوا إليه، بل يناقش بعضهم بأمور الصلاة نفسها، ويشغلهم بصلاة من حولهم، وكيف يرتكبون أخطاء فيها. أما العباد والزهاد الذين لا يحتمل أن الشيطان يستطيع التغلغل إلى صلاتهم، فهو يقدم لهم النصح والإرشاد والوعظ أيضاً أثناء صلاتهم، ويحثهم على القيام بأداء النوافل بعد الصلاة، والتصدق وبر الوالدين وصلة الرحم، بل ويذكرهم بعناوين الأقارب الذين لم يروهم منذ فترة، وفي النهاية يسلم المصلي وقد أدرك أنه كان في رحلة مثيرة مع الشيطان.

أما قصة عثمان مع الشيطان فيقول عنها: «قلت: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً قال: أدنه فجلستني بين يديه، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي، ثم قال: تحول. فوضعها في ظهري بين كتفي. ثم قال: أم قومك فمن أم قوماً فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء»^(٢) فكان «آخر ما فارقه رسول الله ﷺ قال: إذا صليت بقوم فخفف بهم، حتى وقت لي: اقرأ باسم ربك الذي خلق» «وأشباهاها من القرآن»^(٣) وهي

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٤١.

(٣) سننده قوي رواه أحمد ٤-٢١٨ واللفظ له والآخر ل ابن سعد ٥-٥٠٨ عن عبد الله بن عثمان بن خثيم حدثني داود بن أبي عاصم عن عثمان بن أبي العاص. داود تابعي ثقة: التقريب ١١٩ وتلميذه عبد الله صدوق من رجال مسلم: التقريب ٢١٣.

سنة النبي ﷺ التي يقول عنها أنس رضي الله عنه «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ»^(١).

انطلق وفد ثقيف، وجاءت وفود أخرى، وكان أفضلها وفد قبائل: عبد القيس، وأسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقدمت بعدها وفود أخرى

وفد جميل من المشرق

هذا الوفد القادم من المشرق.. قد تميز بأشياء جميلة عطر بها النبي ﷺ أجواءهم، وأشجى بها أسماعهم، وكأنها مكافأة لهم على تجشمهم الصعاب في الوصول إليه، حيث إنهم لا يستطيعون السفر للمدينة إلا في الأشهر الحرم، نظراً لأن أعداءهم يحولون بينهم وبين ذلك.. ذلك الوفد هو:

وفد البحرين

يقول أحد الصحابة: «إن وفد عبد القيس لما أتوا رسول الله ﷺ قال: من الوفد؟ قالوا ربعية. قال: مرحباً بالوفد أو القوم غير خزايا ولا ندامى.

قالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك كفار مضر، فمرنا بأمر ندخل به الجنة، ونخبر به من وراءنا؟

فسألوا عن الأشربة؟ فنهاهم عن أربع، وأمرهم بأربع.. أمرهم بالإيمان بالله. قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم

قال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأظن فيه صيام رمضان، وتؤتوا من المغنم الخمس، ونهاهم عن الدباء، والحنتم، والمزفت، والنقير»^(٢) «احفظوهن وأبلغوهن من وراءكم»^(٣)

(١) صحيح مسلم ١-٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

«قالوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير؟ قال: بلى جذع تتقرونه، فتقذفون فيه من القطيعاء، أو من التمر، ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف.

وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ. فقلت: ففيمَ نشرب يا رسول الله؟

قال: في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهاها. قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجردان، ولا تبقى بها أسقية الأدم؟

فقال نبي الله ﷺ: وإن أكلتها الجردان، وإن أكلتها الجردان، وإن أكلتها الجردان»^(١) أي وإن قلت تلك الجلود، وأصبحت نادرة لأكل الجردان لها.

لكن هذا الحكم لم يدم، فقد أنزل الله على نبيه حكماً بالسماح بالشرب في الدباء، وهو وعاء مصنوع من القرع بعد تفريفه. والحنتم، وهي جرة الخمر الخضراء، والمزفت، وهو وعاء مطلي بالزفت. وكذلك النقير، وهو خشبة منحوتة على شكل إناء لشرب الخمر. وكأن الحكم السابق نزل لنزع كل ما يذكر الإنسان بالخمير من أواني.. تفنن في صنعها لإضفاء أجواء معينة على مجالس الشرب، كما نزلت أحكام أخرى جديدة.

قال «بريدة: قال رسول الله ﷺ: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً»^(٢)

ثم توجه ﷺ إلى أبرز رجل في هذا الوفد الكريم وأثنى على صفتين من صفاته، حيث «قال نبي الله ﷺ لأشج عبد القيس: إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»^(٣)

وقد طال مجلس عبد القيس مع النبي ﷺ من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ولما انصرفوا حدث من النبي ﷺ شيء لم يكن يصنعه. فقد كان ﷺ لا يصلي بعد

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٨.

(٢) صحيح مسلم ١-٤٨.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٥٦٢.

العصر بل قد «نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»^(١)

«قالت أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنهما، ثم رأيته يصليهما . أما حين صلاحهما فإنه صلى العصر، ثم دخل وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فصلاهما .

فأرسلت إليه الجارية فقلت: قومي بجنبه فقولني له: تقول أم سلمة يا رسول الله: إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين، وأراك تصليهما!! فإن أشار بيده فاستأخري عنه .

ف فعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: يا بنت أبي أمية سألت عن الركعتين بعد العصر، إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان»^(٢)

انصرف وفد عبد القيس ليبنى مسجداً في البحرين، وليكون هذا الوفد قد حقق سبقاً قال عنه ابن عباس «إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس، بجواثي من البحرين»^(٣)

وجاءت وفود أخرى، ولم يكن متوقفاً من كل تلك الوفود أن تكون على مستوى واحد من حسن التعامل والثقافة، فهي وفود ضاربة الجذور في الجاهلية، كما أن تلك الوفود لم تكن تمثل قبائلها إلا رسمياً، لكنها لا تمثل أخلاقيات وسلوك كل فرد فيها، فعند:

قدوم وفد تميم ووفد من اليمن

كان هناك تنافس بين سيدي كهول أهل الجنة حول من يتكلم من بني تميم أولاً فقد «قدم ركب من بين تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد . وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر: ما أردت إلى أو إلا خلافي . فقال عمر: ما أردت خلافك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) صحيح البخاري ١-٢١٢ .

(٢) صحيح مسلم ١-٥٧١ .

(٣) صحيح البخاري ١-٣٠٤ .